عالم البراري

٧

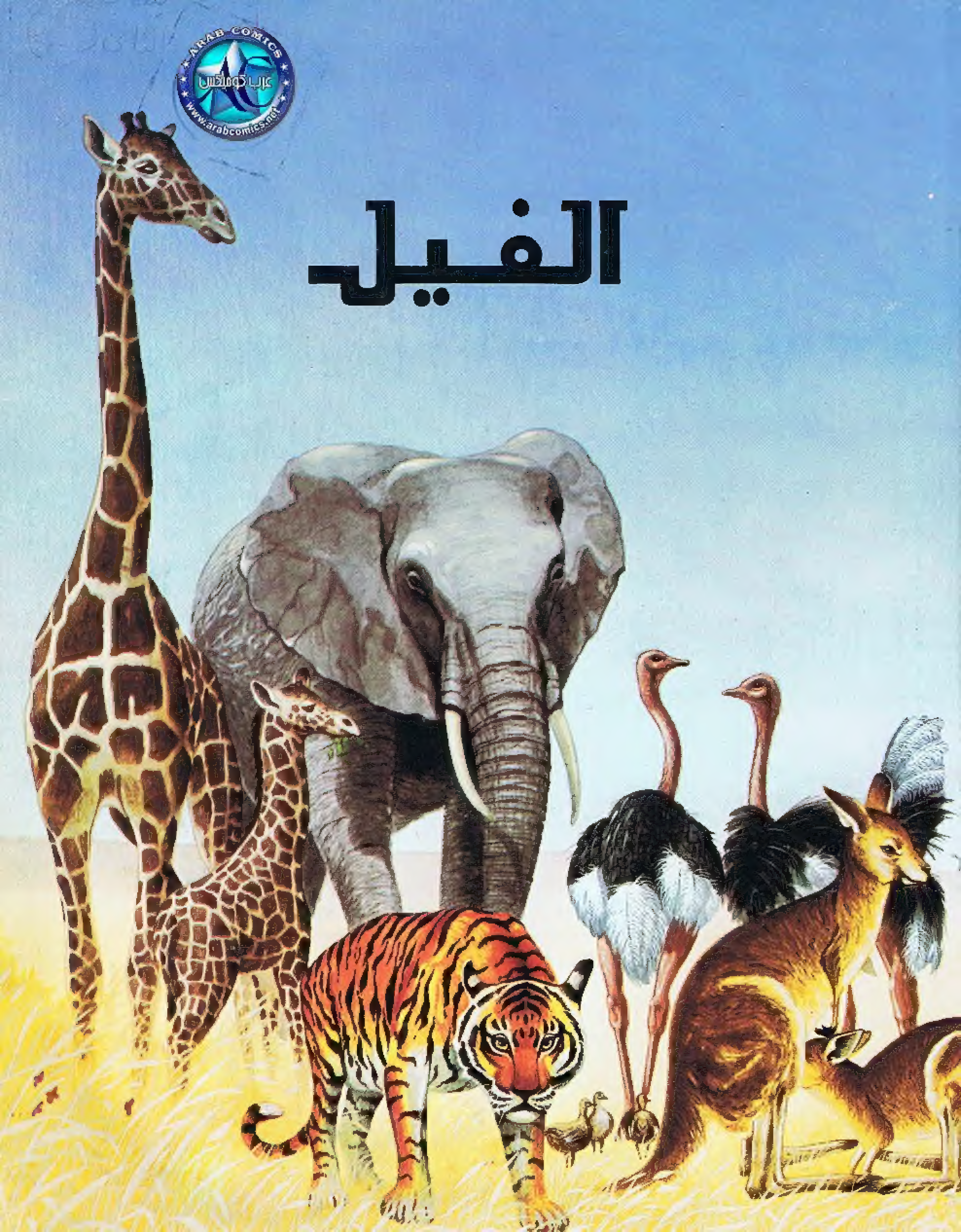
الفيل



دار المسيرة



الفيل



هذه السِّلْسِلَة

- كُلّ قِصَّة مِنْ سِلسِلَة «عالَم البَراري» تَرْوي مُغامَرة أحَد الحَيَوانات وسُلوكه .
- تعتَمدُ الرّوايَة على مُراقَبَة تَصَرُّف نَماذج مِنَ الحَيَوانات في الطّبيعَة ، وَتُصَوِّر بيئَتها تَصْويرًا دقيقًا .
- يُختَتمُ كُلّ كِتابٍ بِمَعلوماتٍ وافيَةٍ وَدقيقَةٍ عَن كُلّ حَيَوان .

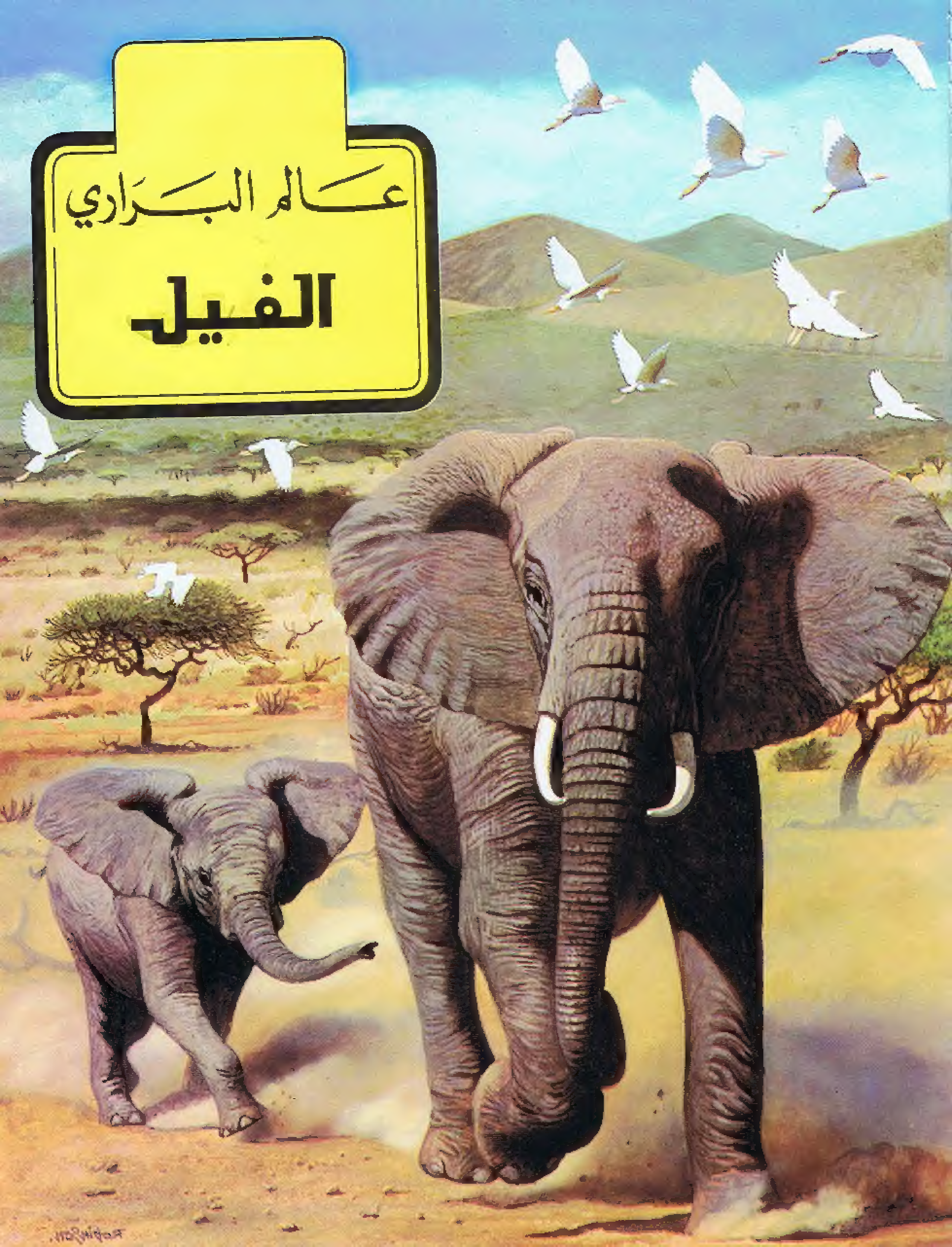
دار المسيرة
للصحافة والطباعة والنشر
بيروت

نُقلت عن الإنجليزيّة بامتيازٍ خاصّ
وَإشتراك فنّي من مُؤسّسة :
Grisewood and Dempsey Ltd
لندن

الطبعة الثانية
١٤٠٢ هجرية
١٩٨٢ ميلاديّة

عالم البراري

الفيل



الزمنُ صباحُ يومٍ حارٍ مغبر، وقد ذهبَ العطشُ بالفيلةِ (أنثى الفيل) كلَّ مذهب، وغَدا جلدُها جافاً يستحكّها، وحامتْ حولَ رأسِها سَحابةٌ من الحشرات. وكانَ سائرُ القطيعِ أيضاً يشعرُ بالعطشِ وهو يمشي مُجْهَداً، نحو جبجابِ ماءٍ ليشربَ ويستحمَّ.

وخلفَ الفيلةِ (الأم) تهادَى صغيراها، أحدُهما ذكرٌ في الثانيةَ عشرةَ، والآخرُ أنثى عمرُها أربعُ سنين. وكان الذكرُ يَهزُّ رأسَه، بعصبيّةٍ، إلى أعلى وأسفل، ليطردَ الحشراتِ، التي تعلقتْ بزاويتي عينيهِ، بينما كانت الأنثى تتعلّقُ بذيلِ أمها طلباً للمساعدة.



وأدرك قطيعُ الأفيالِ جبجابَ الماءِ، لكنه لم يكنْ أولَ منْ وصل.

فقد كان هناكَ حميرٌ زُردٌ (حمير وحشية مخطّطة)، ومجموعةٌ من النّو (من بقر الوحشِ الافريقية، أشكالُها مزيجٌ من خِلقةِ المهاةِ والثورِ والحصانِ، وقُرونُها غليظةٌ منعقفةٌ الى العلاء) تقضُمُ برفقٍ الأعشابَ الخضراءَ الناميةَ على جوانبِ البركة. وفجأةً طفا فرسُ النهرِ على سطحِ الماءِ، وقلّب عينيْهِ الخرزيتين فيما حولَه، ثم عادَ فغطسَ تحتَ الماءِ. ورفعتْ ظبيةٌ رأسَها بقلقٍ، وأصغتْ، ولما سمعتْ قطيعَ الأفيالِ يقتربُ، قفزَتْ هاربةً.



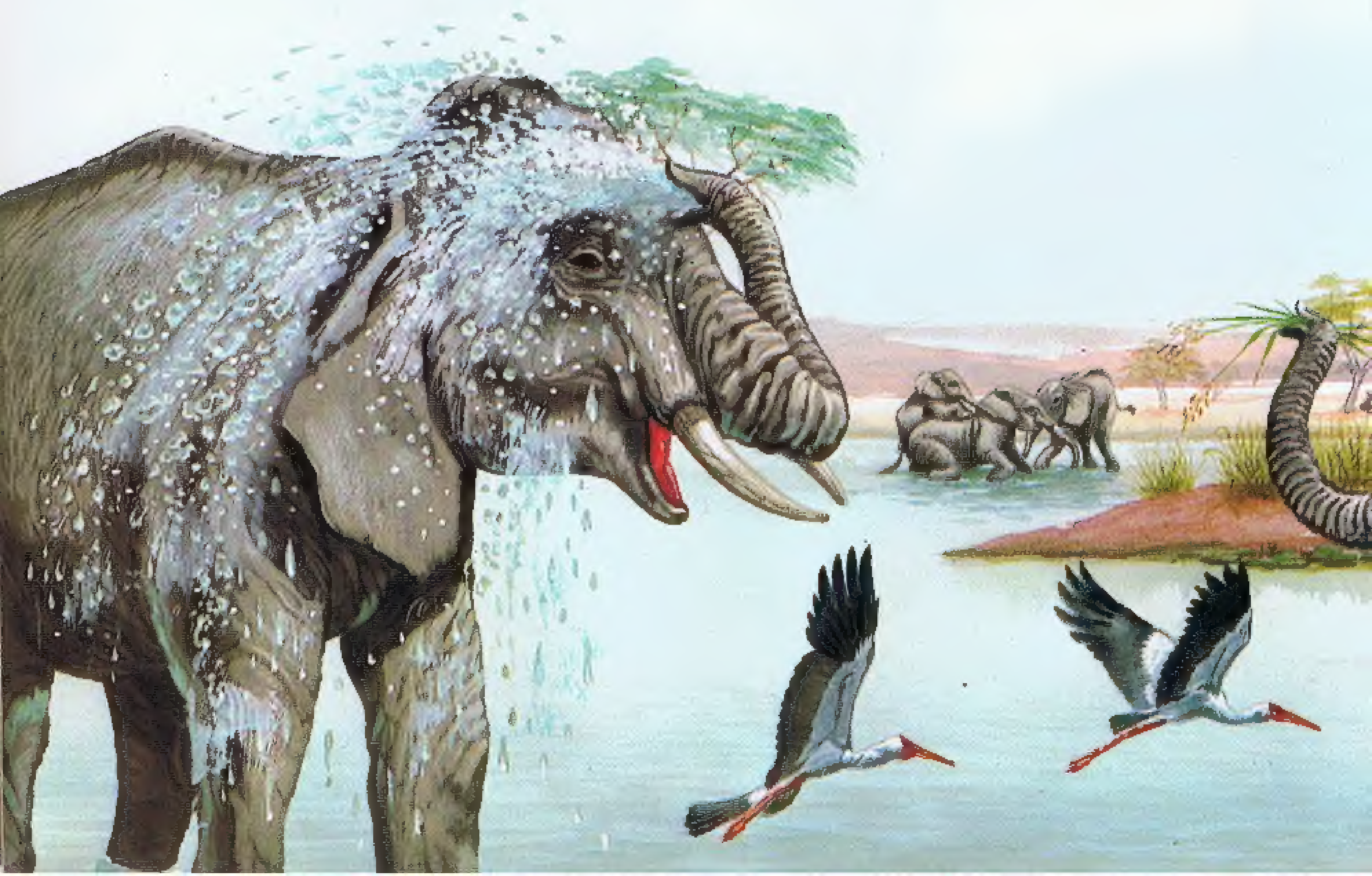
كانتِ الفيلةُ (الأم) عطشانةً. ومعَ ذلك، انتظرتْ ريثَما تشربُ الأفيالُ الأكبرُ سِناً في القطيعِ. وتقدمتْ قائدةُ القطيعِ المسنّةُ بنابها المكسورِ وشربتْ. ثم تهادَتْ بِبُطْءٍ، ونزلتِ الماءَ.

وأخيراً جاء دورُ الفيلةِ (الأم) فامتصّتِ الماءَ الباردَ بخرطومها، ورشّتْ به ظهرَها، بينما اندفعَ الفيلانِ الصغيرانِ مباشرةً داخِلَ الماءِ، وقد تعالتْ صرخاتُهُما بهجةً. وباندفاعهما، راحا يرشّانِ قائدةَ القطيعِ بِالوحْلِ، ويدوسانِ القصبَ اللبي الذي كانت تمضغُ.



ولمّا رأتِ الفيلةُ الأمُ تصرّفَ ولديها غيرَ المهذّبِ، نطحتْ أكبرَهما بنابيها نطحةً قويةً جعلتْهُ يُسرعُ مبتعداً نحوَ وسطِ البحيرةِ، ويتلهّى بالسّباحةِ تحتَ الماءِ، رافعاً خرطومَهُ فوقَ السطحِ كي يستطيعَ التّنفّسَ.

وأما أُختُه فانضمتْ الى صغارِ الفيلَةِ، التي كانت تلعبُ بالتّراشُقِ بالماءِ، في منطقةٍ قليلةِ العُمْقِ وتتمرّغُ في الطينِ، ويغطّسُ بعضُها البعضَ الآخرَ وترشُّ الماءَ والطينَ من خراطيمها.

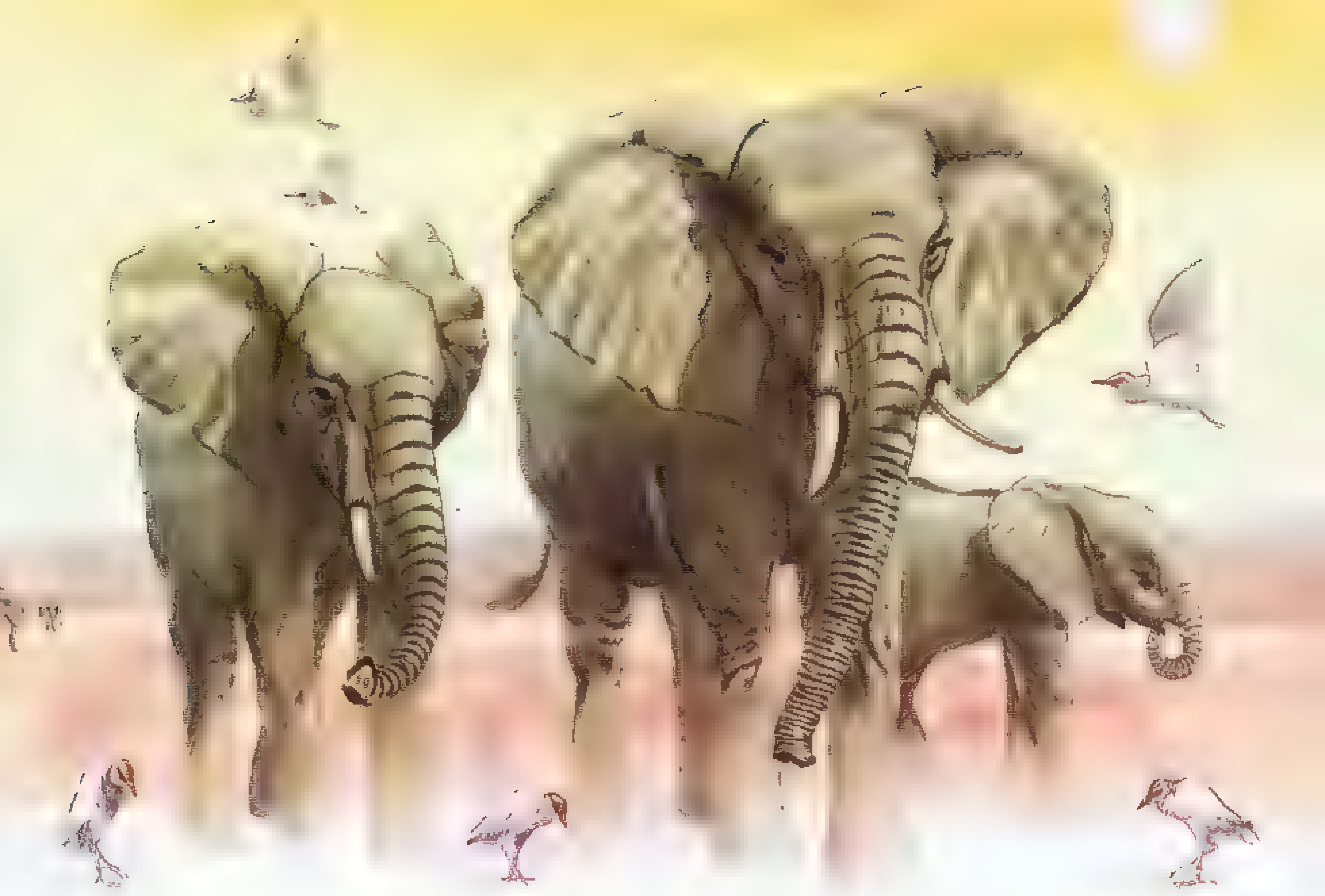


ولمّا أَنهتِ الفيْلَةُ (الأمُ) حمّامَها، تركتْ صغيريها يلعبان، وذهبتْ تَبحثُ عن غذاء. فأخذت تمدّ خرطومَها لتلتقطَ الأوراقَ اللّذيذةَ الطعمِ من أعلى الشّجرِ، وتُقْحِمُهَا في فمها. وبعدَ بُرهةٍ ضايقَها الحرّ من جديدٍ، فتوقفتْ للراحةِ، واستندتْ الى جذعِ شجرة سنْط (أكاسيا) وأخذتْ تحرّك أذنيها الكبيرتينِ لتبرّدَ نفسَها.

وكانتِ الفيلةُ نصفَ نائمةٍ عندما لمحتْ فيلاً ذكراً يتقدّمُ نحوها متثاقلاً. كان أكبرَ منها حجماً، وقد احمرّ جلدُه من الغبارِ، إذْ كان يلاحقُ القطيعَ منذُ مدّة. وكثيراً ما كانتِ الفيلةُ تستحمُّ معه. وشعرَ الآنَ أنها جاهزةٌ للتّزاوج، ولن يخيفَها اقترابُه منها. وأدخلَ الفيلُ رأسَ خرطومِهِ في فمها تودّداً. وفعلتْ هي الشيءَ نفسَه أيضاً. وتلامسا بخرطوميْهما وهما يصرّان ويدمدمان، ثم تزاوجا.

وفي المساءِ، رحلَ عنها الذّكرُ، وعادتِ الفيْلَةُ الى القطيعِ. وفرحَ الفيلان الصغيران برؤية أمّها، وداعباها بخرطوميها. وبعدَ هُنيهةٍ، تموّجتِ السّماءُ بالألوان، التي عكستْها شمسُ الغروبِ البرتقالية. وفجأةً حلّ الظّلامُ، وحانَ وقتُ النّوم. فاصطفّتِ الأفيالُ الكبيرةُ على شكلِ دائرةٍ، حولَ الصّغارِ، لتحميَها. ثم نامَ الجميعُ وُقُوفاً.





وبقيتِ الفيلَةُ معَ القطيع ، بضعةَ أسابيعَ، قربَ الماءِ، ولكنْ عندما اشتدّتْ حرارةُ الطقسِ بدأ جُبجابُ الماءِ يجفّ. وتحوّل إلى مستنقع طينيّ، وبعدَ فترةٍ، لم يبقَ منه سوى التراب الأغبر.

وكانتْ جميعُ الحيواناتِ جائعةً. فقد قَضَمتِ العشبَ حتى الجذورِ. وكسّرت الأفيالُ الأشجارَ كي تصلَ الى أوراقِ الأغصانِ العُليا، كما عرّتْ أشجار الباوبات (أشجار استوائية عريضة الجذع) من لحائها لتمضغَ خَشَبَها الاسفنجيّ. وبعدَ مدةٍ قصيرةٍ لم يَبْقَ أيُّ شيءٍ يُؤكلُ. وأصبحَ على الحيواناتِ أن تُهاجرَ.



وراحَتِ الشّمسُ تلهبُ الأرضَ سياطاً من أشعّتها. ولَمْ تُمطرِ السّماءُ. فجفّتِ الأنهارُ، ويبستِ النباتاتُ، وماتَتْ، وعصفتْ بالسهولِ رياحٌ مغبرَّةٌ. ومشتِ الفيلةُ وصغيراها ساعاتٍ عديدةً، كلَّ يومٍ، بحثاً عن الطعامِ والماءِ.

وواكبَ سِرْبُ البلشون (المعروف باسم ابن الماء) الأفيالَ في مسيرتها. وكانتِ الطيورُ تُحلّقُ حولَ رؤوسها، وتحطّ على ظهورها، وتنقرُ الأرضَ عند أقدامها. فبينَ الطيورِ والأفيالِ صداقةٌ حميمةٌ، لأنّ البلشونَ يجدُ غذاءهُ المفضّل في الحشراتِ التي تضايقُ الأفيالَ.

وفي أحدِ الأيامِ، اصطحبت الفيلةُ صغيريها إلى جُبجابِ ماءٍ تعرفُهُ. ولكنها لم تَجدْ سوى أرضٍ جافّةٍ، ومشقّقةٍ، فراحتِ الفيلةُ تحفرُ الترابَ، فقد شمّتْ رائحةَ الماءِ. وكانت على يقينٍ من أنها ستجدُ ولو قليلاً منه، تحت التراب. ولذا راحت تحفر وتحفر بنابيها. وكان الصغيرانِ يرقبان أمهما باهتمامٍ. ولمّا بدأت الحفرةُ تمتلىءُ بالماء الباردِ، والصافي، أدلتِ الفيلةُ بخرطومِها في الحفرةِ وامتصّتِ الماءَ، ومجّتْهُ داخلَ فمها الجافِّ. وبعدَ ذلك شربَ الصغيران.





وشربتِ الأفيالُ ملءَ بطونها، ثم ابتعدتْ بتثاقُلٍ تبحثُ عن غذاء. وما أنِ انصرفتْ حتى تقدّمتْ زرافةٌ من وراءِ الأشجارِ لتسرقَ شربةَ ماءٍ من حفرةِ الفِيلةِ. ولكنْ ما كادتْ تهمّ بالشّربِ، حتى استدارتِ الفيلةُ الصغيرةُ عائدةً.

وحاولتِ الزرافةُ أن تنهضَ بسرعةٍ وتهربَ، إلاّ أنّ قوائِمَها الطويلَةَ تشابكتْ، وراحتْ رقبتُها تتهادى بسرعةٍ، يَمنةً ويساراً في أثناء محاولتها النُهوض. وانتظرتِ الفيلةُ الصغيرةُ الى أنِ ابتعدتِ الزرافةُ المذعورةُ، فملأتْ خرطومها بالماء لتغسِلَ جلدَها الذي حميَ من شدّة القيظِ.

ورشّتِ الفيلةُ الصغيرةُ نفسَها بماءِ الحُفرةِ ثمّ وقفتْ تنتظرُ امتلاءَ الحفرةِ من جديد. ولم تكنْ تعلمُ أنَّ أسداً جائعاً قد شمّ رائحةَ الماءِ ووقفَ يترصّدُ، قُربَه. واقترب الأسدُ بهدوءٍ بحيثُ لا تسمعُهُ الفيلةُ الصغيرةُ. إلاّ أنّ طيورَ البلشون الأبيض، التي كانت تقفُ على ظهرِ الفيلةِ الأمّ، شعرتْ بالخطرِ، وطارتْ مبتعدةً.



واستدارتِ الفيلةُ الأمّ، والتقطتْ رائحةَ الأسدِ. فانطلقتْ نحو صغيرتِها ووقفتْ حاجزاً بينها وبينَ الأسدِ. وأطلقتْ صرخةً متوحّشَةً، وخفضتْ رأسَها لتطعنَ الأسدَ بنابيها. وزأرَ الأسدُ وزمجرَ عندما انطلقتِ الفيلةُ هاجمةً عليه برأسها المحنيّ، وأدرك خطرَ النابين الحادتين، فاستدارَ عائداً إلى الأدغال.

ولم تُصَبِ الفيلةُ الصغيرةُ بأذى، ولكنها كانتْ ترتجفُ من الخوفِ. وبقيتْ، بعد ذلك، ملازمةً أمَّها، فترةً طويلةً.



وفي هذه الأثناء، كان الجنين يكبرُ في بطن الفيلة. فقد حملتهُ طوالَ عامين. والآنَ، حانَ وقتُ الولادةِ.

وعندما آن أوانُ الوضْع، انسلّتِ الفيلةُ الى مكانٍ خفي، ولحقتْ بها فيلتانِ أكبرُ منها، سبقَ لهما أن وضعتا، لمساعدتها. وبعد ولادةِ الفيل الصغير، خَلَدَت الأمُ الى الراحةِ. بينما راحتْ صديقتاها تلعقان الحيوانَ الصغيرَ من جميع أطرافه، ثم أَحْنتا خرطوميهما تحتَ بطنهِ ورفعتاهُ برفقٍ، ليقفَ على قوائِمه. ولكنّ ركبَه كانتْ ترتعشُ، فلم تستطيعا حملَه أكثرَ من هُنيهةٍ فهوى الى الأرض. وعادتِ الفيلتان، فحثّتاه ودفعتاهُ برفقٍ بخرطوميهما الى أن وقفَ على قوائِمه مدةً أخرى.

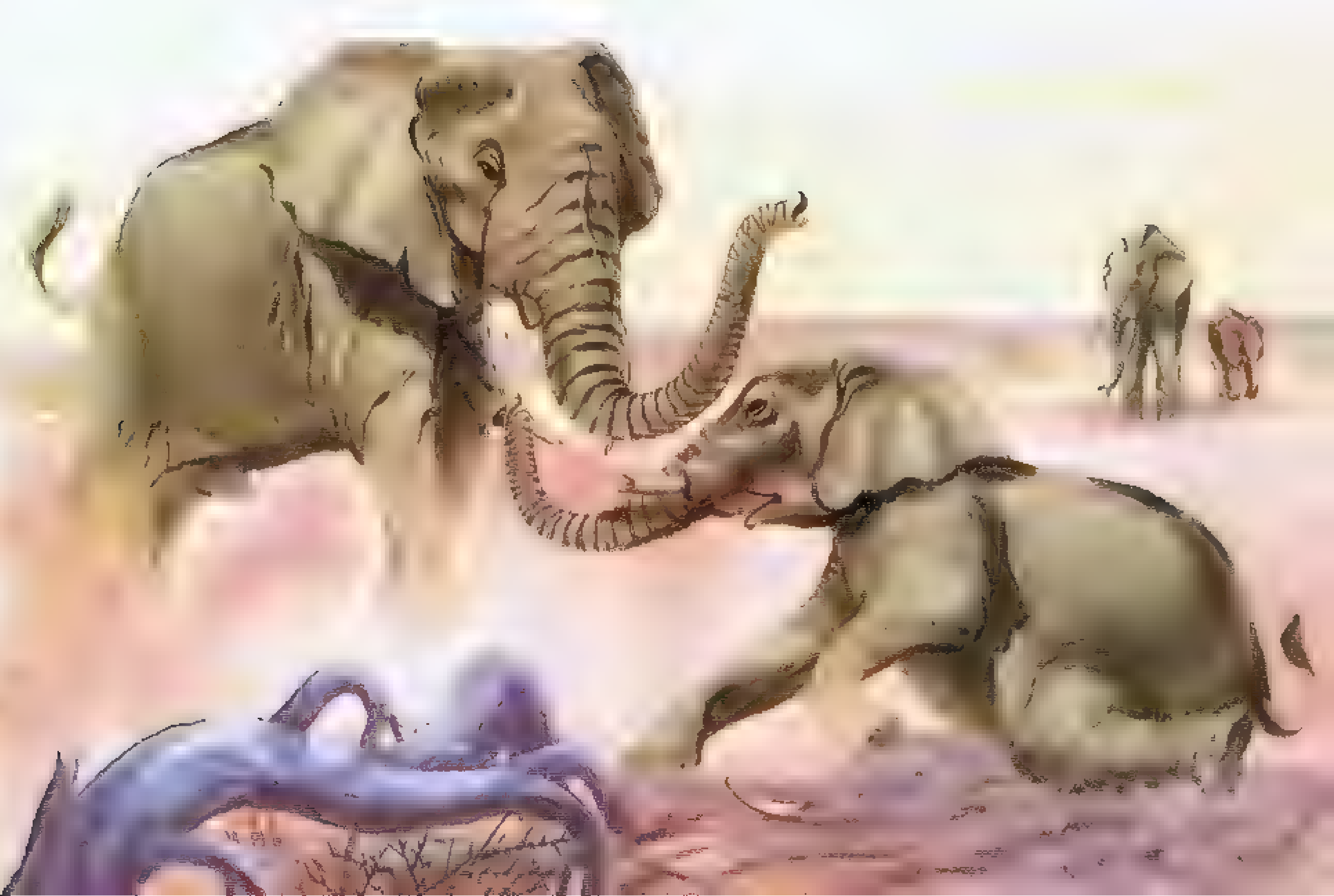
وبعدَ قليلٍ، استطاعَ الفيلُ الصغيرُ أن يقفَ، ويرضعَ حليبَ أمّه الساخن، رافعاً خرطومَه إلى الخلفِ، كي لا يعيقَهُ عن الرضاعةِ.

وبعد يومين، أصبحَ الفيلُ الصغيرُ قادراً على السير خلفَ القطيع. لكنّ مشيتَهُ كانتْ متعثّرةً، وكان يتعبُ أحياناً. وكانتْ قوائِمُهُ الصغيرةُ تؤلُمه. ولكنْ، كان عليه أنْ يتحمّل، وإلاّ تخلّفَ عن القطيع، وأصبحَ لُقمةً سائغةً للأسودِ الجائعةِ، والكلاب الوحشيةِ.



ولم تكُنِ الفيلةُ تتركُ ابنَها يبتعدُ عنها قطُّ. رغمِ محبةِ جميعِ أفيالِ القطيعِ له، وميلها إلى المساعدة. فقد كان صغيراً جداً، حتى يشاركَ في ألعاب الأفيال الأكبرِ سنًّا، خصوصاً أنّ ألعابَها خشنةٌ. ولم يكنْ قد تعلّم، بعدُ، حتى كيف يستعملُ خرطومَه.

وبذلتِ الفيلةُ الأم جهداً خاصاً لتمنعَ ابنَها البكْرَ من الاقتراب من الوليد الجديد. وكان الأولُ أضخمَ حجماً من سائرِ صغارِ القطيعِ وأكثرَها خُشونةً. وكثيراً ما كان يقتتلُ مع بقيةِ ذكورِ القطيعِ الصغار.





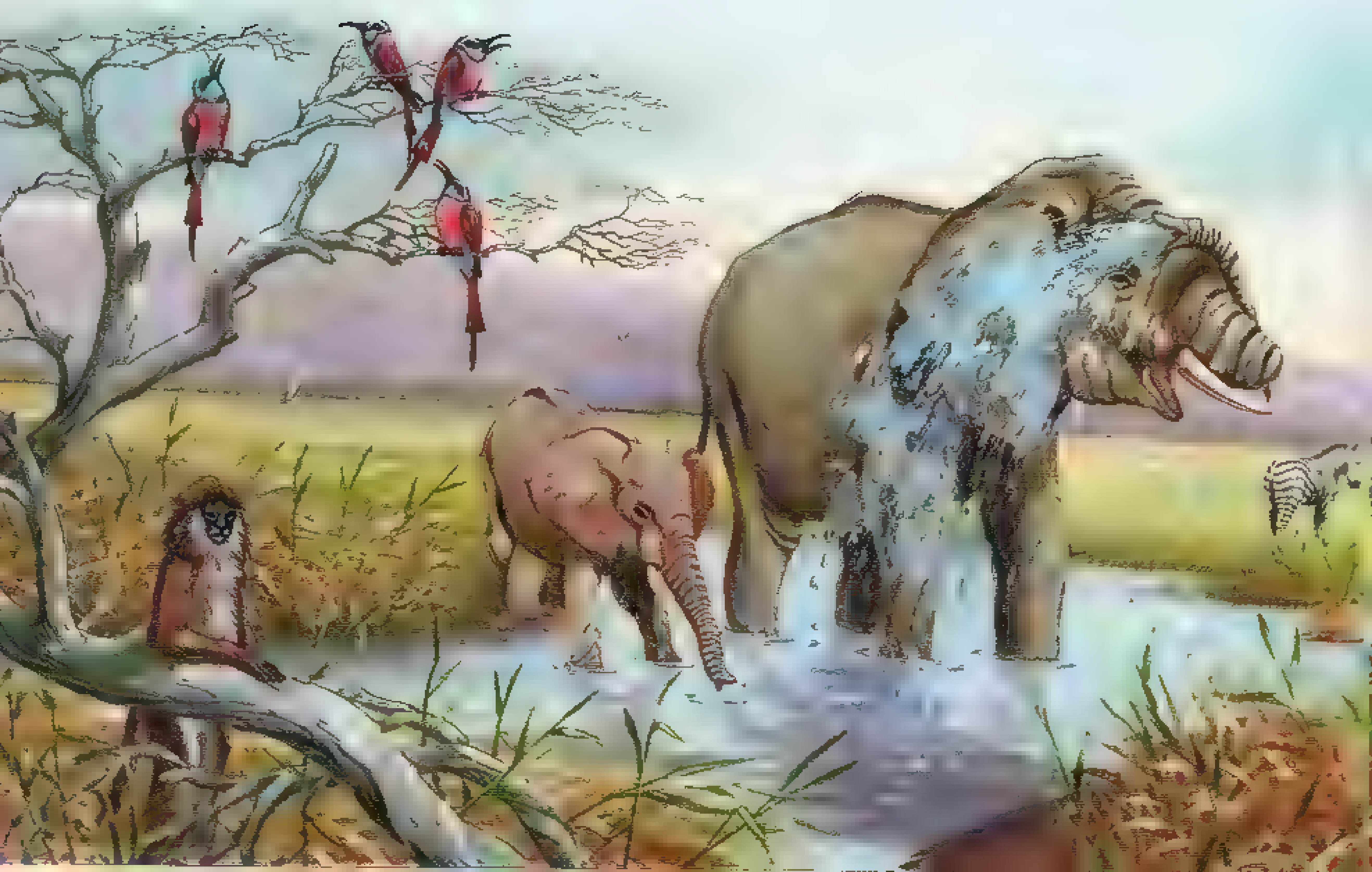
ويوماً غضب من أخته، وهجم عليها. فجرحها جرحاً بليغاً، وكسر نابيها. وكان قد حان وقتُ تركِهِ القطيعَ، بعد أن أضحى حجمُهُ أكبرَ من أن يسمحَ له بالبقاء مع بقيةِ الصغارِ.

وطردتْهُ الأفيالُ، الأكبرُ سناً. ولم تَعدْ تسمحُ له بالعودةِ الى القطيع. ومع ذلك حاولَ اللّحاقَ به، بعدَ عدةِ أيام. وكان ينادي أُمَّه. ولكنها، لم تلقِ بالاً إليه. ولذا انضمّ الى اثنين من الذكورِ الصغارِ، كانا يتبعانِ القطيعَ، آملاً أن يجدَ لنفسه، فيما بعدُ زوجةً في قطيعٍ آخرَ.

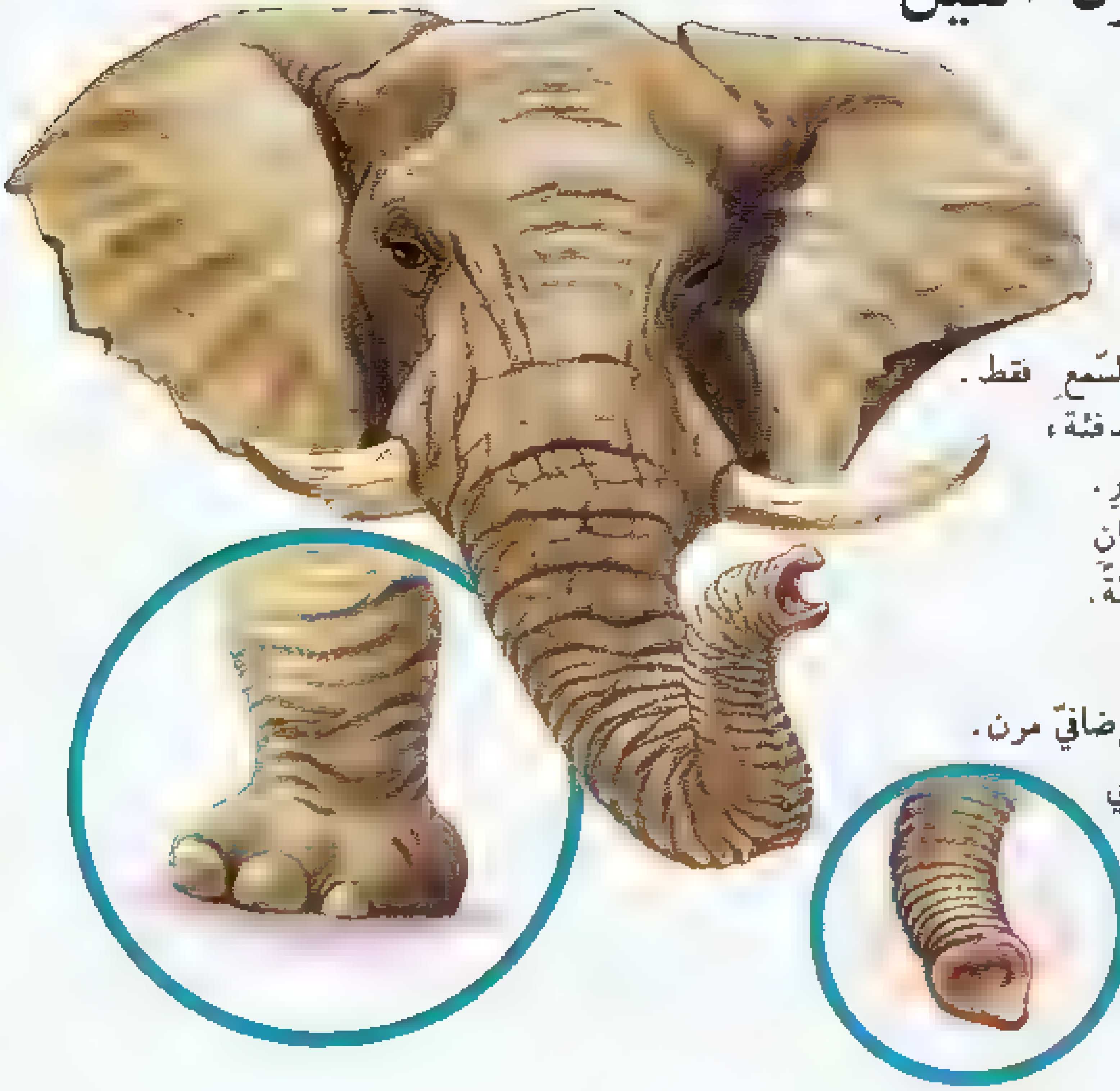
وانتهى موسمُ الجفافِ. وتجمّعتْ غيومٌ رماديةٌ كبيرةٌ فوقَ السهول، وملأتِ الجوَّ طلائعُ المطرِ. وذاتَ مساءٍ، بدأتِ القطراتُ الكبيرةُ تتناثرُ على العشبِ اليابس. ووقفت الفيلةُ تحتَ المطرِ تصفّق بأذنيها، وتطلقُ صيحاتِها العاليةَ. فالآن سيصبحُ الماءُ وفيراً للشّربِ والاستحمامِ. وتراكضتْ صغارُها حولَها تغوصُ بأقدامها الكبيرةِ في البركِ الصغيرةِ، وترشّ بعضها بعضاً بالماء. وكانتْ تلكَ، المرةَ الأولى التي يرى فيها الفيلُ الصغيرُ المطرَ.



وامتلأت الجباجبُ المائيةُ والأنهارُ بالماء. ونبت العشبُ الأخضرُ من بين سُويقانِ النباتِ القديمةِ البنّيةِ اللونِ وسرعانَ ما أصبح الطعامُ الطازجُ اللذيذُ متوفّراً في كل مكان. فلن تضطرَّ الفيلةُ وصغارُها، بعدَ الآن، إلى السّفر مسافاتٍ كبيرة بحثاً عن الغذاء والماء. بل صار يسعُها البقاءُ قربَ جُبجابِ مائها المفضّل، إلى أن يتغيَّرَ الطقسُ ويحينَ وقتُ الرحيلِ، مرةً أخرى.



حقائق حول الفيل



هناك نوعان رئيسيان من الأفيال: الفيلُ الافريقي، بطل قصتنا، ويعيشُ في بعض مناطق أفريقيا، جنوب الصحراء الكبرى. والفيلُ الاسيوي (الهندي)، ويعيش في الهند وبعض مناطق جنوب شرق آسيا.

أذنان كبيرتان أم صغيرتان

الفيلُ الافريقي أكبرُ حجماً من الفيل الآسيوي. ويبلغُ ارتفاعُه ٣،٥ م. ويزنُ حوالي ستة أطنانٍ، وله أذنانِ ونابانِ أكبرُ من أذني ونابي ابن عمّه، وشفتان في رأسِ خرطومه، بدلا من واحدةٍ. وتساعده أذناهُ الكبيرتان في التخلّص من الحرارة، ولذا يستطيعُ العيشَ في السهول الحارةِ، بينما يحتاجُ الفيلُ الآسيويّ إلى المزيدِ من الظّل، ويعيشُ عادة في الأدغال.

وخرطومُ الفيل هو بمثابة أنف وذراعٍ فإذا رَفَعَ الفيلُ خرطومَهُ يستطيعُ أن يلتقطَ رائحةَ الماءِ، والحيواناتِ الأخرى على مسافاتٍ بعيدة. كما أنه يستطيعُ أن يستعملَ خرطومه كذراعٍ يلتقطُ بها أوراقَ الشّجرِ والأعشابَ، وكقصبةٍ يمتصّ بها الماءَ للشربِ وللاستحمام ويتسع خرطومُ الفيل لأربعةِ ليتراتٍ من الماء.

وإضافةً الى حماماتِ الماءِ، تحبّ الأفيالُ حماماتِ الترابِ، التي تساعدُها على طردِ الحشراتِ عن جلدها. ولذلك تراها تمتصّ الترابَ الجافَ وتنفخُهُ فوقَ ظهرها.

وصحيحٌ أن خرطومَ الفيل قويّ، ويستطيعُ أن يحملَ أشجاراً كاملةً، إلاّ أنّ الشمتين الموجودتين في رأس الخرطوم رقيقتان إلى حدّ أنهما تستطيعان التقاطَ ثمرةِ التوتِ البرّي.

النابان والأسنان

يمضي الفيلُ ما يربو على ١٦ ساعةً، في اليوم، في الأكل. فهو يأكلُ حوالي ٣٠٠ كيلو غرام من الخضرةِ، ويمضغُ كلّ لقمة. وتتجدّدُ أسنانُ فكّه العريضةُ المفلطحةُ كلما تآكلتْ. ولكن عندما تتآكلُ آخرُ وحدة - ينمو للفيل ستُّ وجباتٍ من الأسنان طوال حياته - يموتُ الفيلُ لأنه لا يبقى بإمكانه أن يمضغَ طعامَه. وهناك أنيابٌ من النوع الذي لا يتجدّدُ، وهي بمثابةِ أسنان أماميةٍ، ناميةٍ جدا.

وتتكوّن أنيابُ الفيل من العاج. وهو مادةٌ غاليةُ الثمن، وللحصول عليها أقْدَمَ تجارُ العاج على قَتْلِ الكثير من الأفيال، ممّا دفعَ السلطاتِ الى حفظِ الأفيال في محتجزاتٍ، حيثُ يمكنُ حمايتها

الفيَلَةُ تعملُ

دُرّبتِ الأفيالُ على العملِ من أجل الانسان، ومن أجل نقلِه الى ساحات المعارك منذ عام ١٥٠٠ ق.م. أما الآن، فإن الأفيالَ تعملُ عادةً في الغاباتِ، تساعدُ في قَطْعِ الأشجار، ونقل الأحطابِ في أكوامٍ. ويُمسَكُ عادة بالفيل الطلق في الأدغال، ويُربط الى فيلٍ أليفٍ يساعدُ المدرّبَ في تعليم الفيل الجديدِ على الأعمالِ التي سيقوم بها، وتقومُ الأفيالُ الآسيويةُ، عادةً، بهذا العمل.



بدون أي جهد يذكر، يستطيع صغير الفيل الآسيوي أن ينقل كومة أحطاب وسائقه على ظهره.

حكاياتُ الأفيال

عاد أوائلُ المستكشفين، الذين ذهبوا الى أواسط أفريقيا، بقصص وحكاياتٍ عن مقابر الفيَلَه، وهي أماكنُ خاصةٌ تذهبُ الفيلةُ إليها، كي تموتَ. وربّما لم تكُنْ تلكَ القصصُ حقيقيةً. ولكن، منذ ذلك الوقتِ، هناك مَنْ رأى الأفيالَ تتجمّعُ حول أحدِ أفرادِ القطيعِ، الذي يموتُ، وتلامسُه بخرطومها. وتغطّي رأسه بأوراقِ الشّجرِ. كما شُوهدتِ الأفيالُ تغطي موتاها بأوراق وأغصان الشّجر.

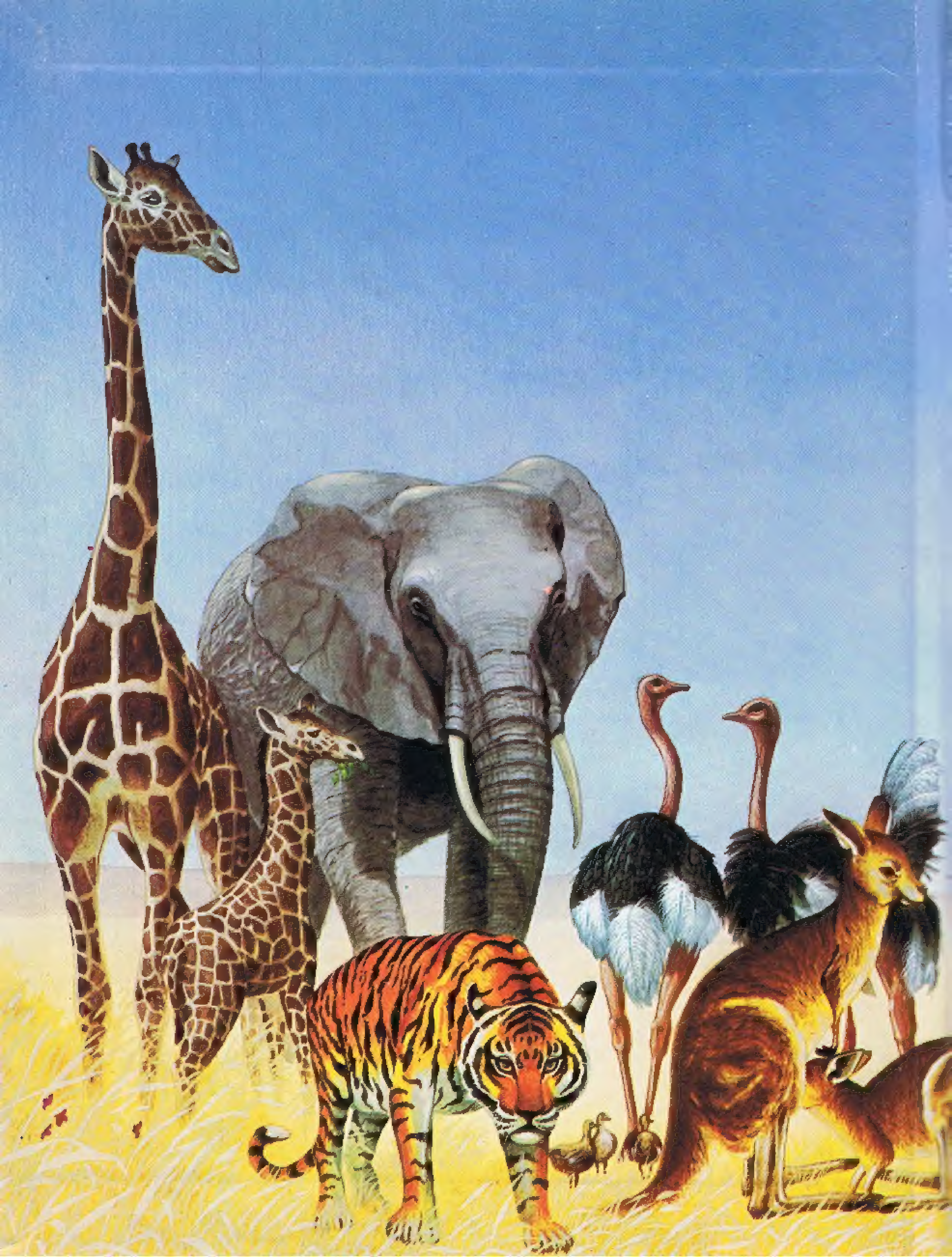
إعداد : جيل كولمان
رسوم : ميخائيل آتكينسون
ترجمة : هالة نابلسي
مراجعة : جوزيف صفير

الاخـراج : دار المسيرة: بـيروت

التنضـيد والمنـتاج : المركز الالكتروني للخدمات الطباعيّة

الطبـاعة : مطبعـة فيـنيقـيا





سلسلة عالم البراري

النمر

الدّب

الكنغر

الذئب

الفيل

البَطريق

الأيل

القندس